البلاغة والنقد الأدبي:الوظائف والمساحات المشتركة
دراسة تاريخ النظم وتطوره

د. هشام كركاعي
جامعة القاضي عياض/مراكش المغرب.

تقديم:

بالرغم من التقاء البلاغة والنقد في مساحة عمل واحدة هي النص الأدبي، إلا ان بينهما فروقا ما بين العلم والفن، فالبلاغة علم يقوم على قواعد وحدود وتقسيم وتحكم مقولاتها قيود منطقية ، والنقد فن يقوم على التحليل والحكم والتعليق والتقويم وتحكم عملياته حرية إبداعية،لكن هذه الفروق لا تمنع من تداخلهما وتجاورهما ما داما يلتقيان في منطقة النص الأدبي فتحضر مقولات بلاغية في النقد وتُؤدى عمليات نقدية في البلاغة، مما يفرز فنا نقديا بطعم علم بلاغي، وعلما بلاغيا بذوق فن نقدي،ويعتبر النظم من أهم المساحات المشتركة بين النقد والبلاغة لاضطلاعهما بدراسة تاريخه وتطوره الاصطلاحي باعتباره وليجة للكشف عن أسرار إعجاز النص القراني.

و سنحاول في هذه الورقة البحثية بيان الدور التاريخي للبلاغة والنقد في دراسة تاريخ النظم العربي وتطوره للكشف عن أسرار اعجاز النص القرآني بالتركيز على عبد القاهر الجرجاني الذي شكل حلقة وصل بين البلاغيين النقاد وعلماء الاعجاز بنظريته في النظم.

Abstract

Despite the confluence of rhetoric and criticism in one workspace, which is the literary text, there exist differences between them as the differences between science and art; rhetoric is a science of rules and boundaries and its statements are ruled by logical restrictions; however, criticism is an art that is based on analysis, judgment, comment, and evaluation and its processes are governed by a creative freedom. Yet,

these differences do not hinder their overlapping as long as they converge in the area of the literary text. So, some rhetorical statements might occur and lead to critical processes in rhetoric, which produces a critical art with a rhetorical taste and a rhetoric with a taste of a critical art. Versing (Nazm) is considered as one of the most common spaces between criticism and rhetoric as they investigate its history and evolution of its concept for it reveals the miracles of the Quranic text. We also attempt in this paper to show the historical role of the rhetoric and criticism in the study of the Arabic prose' history and evolution to uncover the secrets of the Quranic inimitability by focusing on Abdulkaher El Jurjani, who linked between critics rhetoric and the inimitability scholars in his theory of versing (Nazm)

1-النظم عند البلاغيين و النقاد

أ- الجاحظ (255هـ)

يعد الجاحظ من أهم البلاغيين النقاد الذين أولوا عناية خاصة بالنظم حيث سمى أحد كتبه"نظم القرآن" وقال في كتابه "البيان والتبيين":"وقد جعل الله قوم كل نبي هم المبلغين والحجة، ألا ترى أنا نزعم أن عجز العرب عن مثل نظم القرآن حجة على العجم من جهة إعلام العرب العجم أنهم كانوا عن ذلك عجزة"[1]، وقال في كتاب الحيوان: "وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به"[2]، والجاحظ في هذين النصين وغيرهما يؤكد أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه غير أن كتاب " نظم القرآن" للجاحظ لم يصل إلى أيدينا ولو وصل لوجدنا فيه زادا علميا وخيرا، ولكان مصدرا أصيلا للدراسات القرآنية، بيد أننا نجد في مصنفاته الأخرى بعض التقول وبعض الآراء التي قد تعيننا في تفهم مفهوم الجاحظ للإعجاز القرآني القائم على النظم[3]، ويشير الجاحظ في موضع آخر مستخدما مصطلح النظم إلى الترابط بين معرفة نظم القرآن ومعرفة نظم سائر الكلام عند العرب يقول:"وفرق ما بين نظم القرآن، ونظم سائر الكلام وتأليفه، فليس يعرف فروق النظم واختلاف البحث إلا من عرف القصيد من

الرجز والمخمس من الأسجاع والمزدوج من المنثور والخطب من الرسائل وحتى يعرف العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات ،فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام"[4].

ويرتبط النظم عند الجاحظ أيضا بمصطلحات أخرى كالتلاحم والسبك والإفراغ والسلاسة يقول:"وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجرى الدهان"[5].

وإن كان الجاحظ يقترب اقترابا شديدا من روح النظم عند عبد القاهر فيما قاله عن الصياغة والتصوير:"والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وصحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صياغة وضرب من النسج وجنس من التصوير"[6]،إلا أن النظم عند الجاحظ مقيد بالوزن والصورة والتركيب، وكلامه على الوزن كان مطلقا في حين جاء حديثه عن الصورة مقيدا بثلاثة شروط الاختيار والسهولة والطبع ، وأما التركيب فاشترط فيه أن يكون مسبوكا وهذه القيود تجعله متصلا بالشعر دون غيره من ضروب الكلام ،أما النظم عند عبد القاهر فمقيد بالنحو:"واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"[7]، وبالتعليق:" ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض"[8] وبمعاني النحو:"هذا وأمر النظم في أنه ليس شيئا غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم وأنك ترتب المعاني أولا في نفسك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك"[9].

وتقييد الجرجاني النظم بالنحو والتعليق ومعاني النحو يجعله متصلا بكل ضروب الكلام وهذا خلاف واضح في التصور، فالنظم عند الجاحظ يهدف إلى تمييز خصائص النص الشعري خاصة، أما النظم عند الجرجاني فيتناول مجالات التعبير اللغوي عامة ولا يختص بنص من النصوص لأنه يشمل النص النثري والنص الشعري و بالأساس النص القرآني المعجز بالنظم يقول عبد القاهر: " لأنا نحن فيما لا يكون الكلام كلاما إلا به و ليس للوزن مدخل في ذلك"[10].

ب- ابن طباطبا العلوي (322هـ)

يرى أن أحسن الشعر"مَا يَنتَظِمُ فِيهِ القَوْل انتظاماً يَتَّسِقُ بِهِ أَوَّلُهُ مَعَ آخِرِهِ على مَا يُنَسَّقُهُ، قائِلَهُ، فإنْ قُدّم بَيْت على بَيْتٍ دَخَلَهُ الخَلَلُ كَمَا يدخُلُ الرَّسَائِلَ والخطَبَ إذا نُقِضَ تأليفُهَا. فإنَّ الشَّعْرَ إذا أُسّسَ تأسيسَ فُصُولِ الرسائل الْقَائِمَة بأنْفُسِهَا، وكَلِماتِ الحِكْمَةِ المُستَقِلَّةِ بذاتِهَا، والأمْثَالِ السَّائرةِ المَوسُومَةِ باختِصَارها، لم يَحْسُنْ نَظمُهُ بل يَجِبُ أنْ تكونَ القَصِيدةُ كُلُّها كَلِمَةً وَاحِدَة فِي اشتباهِ أوَّلها بآخِرِهَا نَسْجاً وحُسْناً وفَصَاحَةً وجَزَالةَ ألفَاظِ ودِقَّةَ مَعَانٍ وصَوَابَ تأليفٍ."[11].

ولعل أقرب إشارة إلى النظم عند الجرجاني قوله عقب استشهاده بأشعار استدل بها على الجودة والحسن واستواء النظم:"لا تناقض في معانيها ولا هي في مبانيها ولا تكلف في نسجها تقتضي كل كلمة ما بعدها ،ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها[12]، وهي إشارة خفية منه إلى أن النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض وافتقار بعضها إلى بعض، بحيث لا يكون تناقض في معانيها ولا في مبانيها ولا يكون تكلف في نسجها ولا في تصويرها.

ج- قدامة بن جعفر (337هـ).

يشير أبو الفرج قدامة بن جعفر إلى صلة ائتلاف اللفظ والوزن بمعاني النحو في قوله :"وهو أن تكون الأسماء والأفعال في الشعر تامة مستقيمة كما بنيت، لم

يضطر الأمر في الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة عليها والنقصان منها، وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال والمؤلفة منها، وهي الأقوال، على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه، ولا إلى تقديم ما يجب تأخيره منها، ولا اضطر أيضاً إلى إضافة لفظة أخرى يلتبس المعنى بها، بل يكون الموصوف مقدماً والصفة مقولة عليها، وغير ذلك مما لو ذهبنا إلى شرحه لاحتجنا إلى إثبات كثير من صناعتي المنطق والنحو في هذا الكتاب "[13]، ونظرة قدامة بن جعفر هنا إلى النظم هي نظرة جزئية ،لأنه يهتم فقط بنظم الشعر وكيفية اتفاق ألفاظه وأوزانه على حسب ما تقتضيه قوانين النحو عكس نظرة عبد القاهر الشمولية والتي تشمل الشعر والنثر.

د- أبو هلال العسكري (395هـ)

تحدث أبو هلال في كتابه "الصناعتين" عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك قال:"وحسن الرّصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام، ولا يعمّى المعنى؛ وتضمّ كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها،وسوء الرّصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها"[14].

ويبدو أن أبا هلال العسكري هنا يستعمل مفهوما آخر وهو الرصف ، والرصف عنده ضم كل لفظة إلى شكلها وإضافتها إلى لفقها، ووضع الألفاظ في مواضعها دليل على حسن الرصف، ووضعها في غير موضعها دليل على فساده، إلا أنه لم يستطع أن يصل بالرصف إلى ما وصل إليه عبد القاهر الجرجاني بالنظم .

2- النظم عند علماء الإعجاز

أ- الرماني (386هـ)

قسم أبو الحسن علي بن عيسى الرماني البيان من حيث تكوينه إلى مراتب" فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد.وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة"[15]، ويفهم من كلام الرماني أنه يشترط تحقق أربعة شروط لحسن النظم في العبارة هي حسن الوقع في السمع والخفة على اللسان ، وحسن التقبل في النفس وأن يكون المقال على قدر المقام .

وقد يكون حديثه عن التلاؤم قريبا من فكرة النظم :" والتلاؤم تعديل الحروف من التأليف والتأليف على ثلاثة أوجه: متنافر ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا"[16]. ويجعل تلاؤم القرآن في الطبقة العليا حيث يقول :" وذلك بين لمن يتأمله (...) وبعض الناس أشد إحساسا بذاك وفطنة له من بعض (...) واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والأخلاق[17]، وهو بذلك يبين السبب في التلاؤم والفائدة منه، ويعود السبب إلى تعديل الحروف في التأليف، والفائدة منه : الشروط الأربعة الآنفة الذكر التي اشترطها لحسن النظم في العبارة ، وبذلك يكون النظم عنده بمعنى التأليف .

ب- الخطابي (388هـ)

تحدث الخطابي عن النظم في كتابه (بيان إعجاز القرآن) وأكمل ما جاء به الرماني لمسألة النظم بمعنى التأليف،وما تخضع له الألفاظ والمعاني من أمور لتمام هذا النظم والتأليف فعرض الخطابي للعبارة كوحدة متكاملة في لفظها ومعناها ونظمها وكان تركيزه شديدا على موضوع النظم[18]، ويرى الخطابي أن"الكلام إنما يقوم بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ومعنى قائم ورباط لهما ناظم ،وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى

لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ،ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها"[19]،كما يرى أن القرآن" إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني"[20]،ويقول :"إن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ،وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"[21] ،والنظم عنده ليس سهلا ميسورا ،وإنما يحتاج إلى ثقافة ومهارة قال:"وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأن لجام الألفاظ وزمام المعاني و به تنتظم أجزاء الكلام و يلتئم بعضه ببعض، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان"[22].

وبذلك يكشف الخطابي عن نوع من الإحساس بانتظام عناصر النص الأدبي في وحدة خفية مما يعطي النظم مفهوما جديدا يزداد وضوحا مع من جاء بعده[23].

ج- الباقلاني: (403هـ)

يرى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني أن كتاب الله معجز بالنظم لأن نظمه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ،قال :" فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب والشيء القليل العجيب وكما يلحق من كلامه ، بالوحشيات، ويضاف من قوله إلى الأوابد، لأن ما جرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع، فإنما يتفق للشاعر في لمع من شعره، وللكاتب في قليل من رسائله، وللخطيب في يسير من خطبه،ولو كان كل شعره نادراً، ومثلاً سائراً، ومعنى بديعاً، ولفظاً رشيقا، وكل كلامه مملوءا من

رونقه ومائه، ومحلى ببهجته وحسن روائه، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين، والمتردد بين الطرفين، ولا البارد المستثقل، والغث المستنكر– لم يبن الإعجاز في الكلام، ولم يظهر التفاوت العجيب بين النظام والنظام."[24] وقال :"وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف"[25] وقال كذلك :" ليس الإعجاز في نفس الحروف وإنما هو في نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة، ومترتبة في الوجود وليس لها نظم سواها"[26].

وقال عن القرآن إنه :" آية للرسول – صلى الله عليه وسلم – ومعجز شاهدٌ بصدقه ، دالّ على نبوته من ثلاثة أوجه: أحدها: ما فيه من عجيب النظم، وبديع الوزن والرصف المخالف لجميع أوزان العرب ونظومه، وأنه لا قدرة لأحدٍ من الخلق على تأليف مثله ، ونظم مثل سورة منه ، أو آية من طوال سوره أو من قصار سوره ، ولو كان في فصاحة يعربٍ وقحطان ومعد بن عدنان"[27]، وهو في ذلك متأثر بالجاحظ الذي ذهب إلى أن مرجع الإعجاز في القرآن يعود إلى نظمه وتأليفه العجيب المباين لأساليب العرب في الشعر والنثر وما يطوى فيه من سجع[28]، كما أنه متأثر بفكرة الرماني في الإعجاز وهي أن القرآن يرتفع إلى أعلى طبقة من طبقات البلاغة[29].

ويرى " أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوا في الشعر ووصفوا فيه، وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدريب به والتصنع له كقول الشعر ورصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق في البلاغة..."[30].

وهو هنا ينفي أن يكون إعجاز القرآن في البديع لأنه أمر يمكن استدراكه بالصنعة والدربة، وبالمقابل يثبت إعجاز القرآن في نظمه وصياغته، إلا أن الفكرة عنده ظلت غامضة ولم يستطع توضيحها توضيحا دقيقا مما جعل

معاصره المتكلم المعتزلي أبو هاشم الجبائي (313هـ) يرفض فكرة النظم كمحدد لإعجاز القرآن، وهو في إطار رفضه للفكر الأشعري سهل عليه رفض المصطلح حتى جاء تلميذه القاضي عبد الجبار المعتزلي (415هـ) فبين فساد رأي شيخه وأعاد لفكرة النظم مكانتها في الجدل بين الأشعرية والمعتزلة وأهميتها كمحدد لإعجاز القرآن.

د- القاضي عبد الجبار الأسدأبادي (415هـ)

عاد القاضي عبد الجبار بشيخه والمعتزلة عموما إلى فكرة النظم واشترط إلى جانبها جزالة اللفظ وحسن المعنى أي اعتبار المزية في الفصاحة والأهم في عمله أنه رجع إلى المفهوم القديم للنظم، لكنه استبدله بمصطلح جديد هو الضم ، ورغم هذا التغيير في المصطلح يبقى القاضي عبد الجبار أول من أوضح المفهوم ووضعه في مساره الصحيح يقول :"اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلم ،وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه،وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع، لأنه إما أن تتغير فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة ،ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ماعداها"[31].

فالفصاحة عند القاضي عبد الجبار لا تظهر في الكلمة المفردة إلا بالنظر إلى موقعها من التركيب وإعرابها ونظامها النحوي، وهو بذلك يقترب من روح النظم عند عبد القاهر غير أنه يرى أن المعاني لا تظهر فيها المزية وإنما تأتي من الضم على طريقة مخصوصة يقول :" إن المعاني وإن كان لابد منها فلا

تظهر فيها المزية وإن كان تظهر في الكلام لأجلها ،ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق ،وقد يكون أحد المعنيين أحسن وأرفع والمعبر عنه في الفصاحة أدون فهو مما لابد من اعتباره، وإن كانت المزية تظهر بغيره"[32].

كما أن المعاني عند عبد الجبار لا يقع فيها تزايد ، ولكن التزايد يقع في الألفاظ التي يعبر بها عنها يقول :" إن المعاني لا يقع فيها تزايد،وإذن فيجب أن يكون التزايد عن الألفاظ كما ذكرناه"[33]، وهذان القولان :" إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلم، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة" ،ثم "إن المعاني لا تتزايد ،وإنما يقع التزايد في الألفاظ"، هما اللذان يدور كتاب "دلائل الإعجاز" على توضيحما وبيان معناهما، لا أنه يبطلهما أو يرد معناهما كما اعتقد ذلك محمود شاكر في مقدمة تحقيقه لكتاب "دلائل الإعجاز"[34] ، ومما يدل على ذلك قوله في فصل تحرير القول في الإعجاز الفصاحة والبلاغة:" وذلك أنهم قالوا: "إن الفصاحةَ لا تَظْهرُ في أفرادِ الكلماتِ.وإنما تَظْهرُ بالضمِّ على طريقةٍ مخصوصةٍ"، فقولُهم "بالضم"، لا يَصِحُّ أن يُرادَ به النطقُ باللفظةِ بعْدَ اللفظةِ، مِنْ غيرِ اتصالٍ يكونُ بين معنييهما؛ لأنه لو جازَ أنْ يكونَ لِمجرَّدِ ضَم اللفظِ إلى اللفظِ تأثيرٌ في الفصاحةِ، لكانَ يَنبغي إذا قيلَ: "ضَحِكَ، خَرَجَ" أنْ يَحْدُثَ في ضَمِّ "خرجَ" إلى "ضحكَ" فصاحةٌ! وإذا بطَلَ ذلك، لم يَبْقَ إلا أنْ يكونَ المعنى في ضمِّ الكلمةِ إلى الكلمةِ توَخِّي معنًى من معاني النحو فيما بينَهُما، وقولُهم: "على طريقةٍ مخصوصةٍ"، يُوجِبُ ذلك أيضاً؛ وذلك أَنه لا يكونُ للطريقةِ إذا أنتَ أردْتَ مجرَّدَ اللفظ معنى، وهذا سبيلُ كلِّ ما قالوه، إذا أنتَ تأَمَّلتَهُ تَراهُمْ في الجميعِ قد دفَعوا إلى جَعْل المزية في معاني النحو وأحكامِه مِنْ حيثُ لم يَشْعروا؛ ذلك لأنه أَمرٌ ضروريٌّ لا يمكن الخروج منه، ومما تَجِدُهم يَعْتمِدونَه ويرجعِونَ إليه قولُهم: "إنَّ المعاني لا تتزايدُ؛ وإنَّما تَتزايدُ الألفاظُ، وهذا كلامٌ إذا تأملْتَه لم تَجِدْ له معنًى

يَصِحُّ عليه؛ غيرَ أنْ تَجْعلَ "تزايُدَ الألفاظِ" عبارة على المزايا التي تَحْدُثُ مِن توخِّي معاني النحوِ وأَحكامهِ فيما بينَ الكَلِم؛ لأنَّ التزايُدَ في الألفاظِ من حيثُ هي ألفاظٌ ونُطْقُ لسانٍ، مُحالٌ."[35]

فانظر إلى قوله:"فقولُهم "بالضم"، لا يَصِحُّ أن يُرادَ به النطقُ باللفظةِ بعْدَ اللفظةِ" فهذا رد على أهل زمانه الذين لم يفهموا قول القاضي عبد الجبار بالضم وجعلوا المراد به النطق باللفظة بعد اللفظة كيف جاء واتفق، ولما كانت عبارة القاضي عبد الجبار غامضة وأوقعت معاصري عبد القاهر في هذا الغلط والاشتباه، تولى مسألة توضيحها وبين أن معنى ضم الكلمة إلى كلمة هو توخي معنى من معاني النحو فيما بينها ،وأشار إلى أن قول القاضي عبد الجبار:" على طريقة مخصوصة " يوجب هذا المعنى، وانظر إلى قوله:" ومما تَجِدُهم يَعْتمِدونَه ويرجعِونَ إليه قولُهم: "إنَّ المعاني لا تتزايدُ؛ وإنَّما تَتزايدُ الألفاظُ..." فهذا أيضا إبطال لما ذهب إليه أهل زمانه عندما اعتمدوا على هذا الدليل ورجعوا إليه للدفاع عن مسألة الفصاحة في اللفظ ،إلا أنهم بصنيعهم ذاك أحالوا كلام القاضي عبد الجبار عن مكانه، ويرى عبد القاهر أن هذا الكلام ليس له معنًى يَصِحُّ عليه؛ غيرَ أنْ تَجْعلَ "تزايُدَ الألفاظِ" عبارة على المزايا التي تَحْدُثُ مِن توخِّي معاني النحوِ وأَحكامهِ فيما بينَ الكَلِم؛ لأنَّ التزايُدَ في الألفاظِ من حيثُ هي ألفاظٌ ونُطْقُ لسانٍ مُحالٌ[36].

ولئن كان الجرجاني قد حمّل أهل زمانه مسؤولية إحالة الأمور عن جهاتها لقلة تدبرهم وسوء نظرهم، فإنه عاتب أيضا القاضي عبد الجبار على غموض عبارته وخفائها وعدم الإفصاح عن الغرض أو المقصود بدقة "واعلمْ أنَّه إذا نظرَ العاقِلُ إلى هذه الأدلة فرأى ظهورها، استبعدَ أنْ يكونَ قد ظنَّ ظانٌّ في "الفصاحةِ" أنَّها مِن صفةِ اللفظِ صريحاً، ولعمري إنه لكذلك ينبغي، إلا أنا إنما تنظر إلى جِدِّهم وتَشدُّدِهم وبتِّهمُ الحُكْمَ "بأنَّ المعانيَ لا تتزايدُ، وإنما تتزايدُ

الألفاظُ"، فلئِنْ كانوا قد قالوا "الألفاظُ" وهم لا يُريدونها أنفُسَها، وإنما يريدون لطائفَ معانٍ تُفْهم مِنْها، لقد كان ينبغي أنْ يتَّبعوا ذلك مِن قولِهم ما ينبئ عن غرضهم، وأن يذكروا أنهم عنوا بالألفاظ ضرْباً من المعنى، وأن غرَضَهم مفهومٌ خاصٌّ[37].وإذا كان الجرجاني قد تحامل على معاصريه لإحالتهم الأمور عن جهاتها و عاتب متقدميه لغموض عباراتهم وخفائها،فهل دقق في أمر النظم ووضح غموضه؟

3-النظم عند عبد القاهرالجرجاني(471 هـ)

يبدو ومن خلال ما تقدم أن نظرية النظم ليست نظرية ابتدعها عبد القاهر فينكرها منكر ، بل هي مبثوتة في التراث العربي القديم ولها أصول معرفية في البلاغة والنقد وعلم الكلام، ويؤكد الجرجاني نفسه هذا الأمر بقوله :" وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره والتنويه بذكره وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه ،ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم به ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ، وبتهم الحكم بأنه الذي لا تمام دونه ولا قوام إلا به، وأنه القطب الذي عليه المدار والعمود الذي به الاستقلال"[38].

ففي هذا النص يعترف عبد القاهر بأنه مسبوق بغيره في مسألة النظم حيث يؤكد من جهته على هذا السبق المعرفي للعلماء قبله واتفاقهم على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره وإجماعهم على أهميته في حسن الكلام واستقامته وإصدارهم الحكم على قيمته ومكانته، لكن عندما نتدبرقوله: "إلا أنهم وإن كانوا لم يستعملوا النظم في المعاني قد استعملوا فيها ما هو بمعناه،ونظير له"[39]، وقوله في موضع آخر:"ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير، وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح"[40]، يتضح إطباق العلماء- بالفعل- على تفخيم شأن النظم،ولكن ليس

باسمه، بل بمسميات أخرى شاعت عندهم منها النسج ،والتأليف، الصياغة، الرصف، التلاؤم، البناء ، الوشي، التحبير والضم، وتبدو هذه المعاني الاصطلاحية للنظم غامضة وفيها كثير من الإجمال وشعب من الاحتمال، والجرجاني عدو الغموض والإجمال وصاحب التحقيق والتدقيق، حيث نجده يحرص حرصا شديدا على أن يكون النظم أوضح من عبارات العلماء الغامضة وأدق، ويظهر هذا التدقيق والتحقيق في رده على غموض عبارة القاضي عبد الجبار في تفسير الفصاحة بقوله:" ولو كان قول القائل لك في تفسير الفصاحة : إنها خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض على طريق مخصوصة أو على وجوه تظهر بها الفائدة أو ما أشبه ذلك من القول المجمل كافيا في معرفتها ومغنيا في العلم بها لكفى مثله من معرفة الصناعات كلها، فكان يكفي في معرفة نسج الديباج الكثير التصاوير أن تعلم أنه ترتيب للغزل على وجه مخصوص وضم لطاقات الإبريسم بعضها إلى بعض على طرق شتى وذلك ما لا يقوله عاقل(...)وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا ما،وأن تصفها وصفا مجملا،وتقول فيها قولا مرسلا، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم وتعدها واحدة واحدة، وتسميها شيئا شيئا، وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع، وكل آجر من الآجر الذي في البناء البديع"[41].

وهذا النهج في التفصيل والتحصيل والتحقيق والتدقيق سلكه الجرجاني أيضا في بيان أمر النظم وتفسير المراد منه:"واعلم أن هاهنا أسرارا ودقائق لا يمكن بيانها إلا بعد أن تقدم جملة من القول في النظم وفي تفسير المراد منه،وأي شيء هو؟ وما محصوله ومحصول الفضيلة فيه؟ فينبغي لنا أن نأخذ في ذكره وبيان

أمره وبيان المزية التي تدعى له من أين تأتيه وكيف تعرض فيه؟ وما أسباب ذلك وعلله؟ وما الموجب له؟[42]

وهذا يعني أن العلماء قبل عبد القاهر أدركوا مكانة النظم وأهميته في الكلام، ولكنهم لم يقفوا على أسبابه وعلته والموجب له، والتدقيق في هذه الأمور والتحقيق فيها هو الذي جعل النظم عند الجرجاني هو نظم الكلم بعضها ببعض، ولكن ليس نظما مطلقا ،بل هو نظم مخصوص بالتعليق، وليس كل نظم للكلم بعضها ببعض كيف جاء واتفق ،بل هو نظم تتوخى فيه معاني النحو على حسب ما يقتضيه علم النحو وقوانينه وأصوله، ثم هو نظم لا تتحقق مزية الكلام في لفظه أو في معناه بدونه، ولا قوام فيهما إلابه ،وهذا ما جعل النظم عند عبد القاهر يشمل نحو النص وبلاغته ونقده.

فعلى مستوى النحو ينظر إلى التعليق في النص باعتباره وحدة البناء النحوي لأنه يوفر شبكة العلاقات النحوية التي تتضافر فيما بينها لتكون نسيج النص وهي لا تعدو ثلاثة أقسام تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما.

وعلى مستوى البلاغة ينظر إلى توخي معاني النحو في النص باعتبارها وحدة الإنتاج البلاغي فيعمل المبدع على إنتاج نصه بالنظر في الوجوه والفروق التي يراها في الخبر وفي الحال اللذين لهما ارتباط بمواضع الكلم في النص والنظر في الفصل والوصل اللذين لهما علاقة بسرد الجمل المكونة للنص، ثم التصرف في التّعريفِ، والتَّنكيرِ، والتّقديمِ والتأخير ، وفي الحذف، والتكرار والإضمار، والإظهار، التي لها ارتباط بجمالية النص وإبداعيته.

وعلى مستوى النقد ينظر إلى المزية باعتبارها وحدة النقد النحوي البلاغي فيعرف الناقد ما الصنعة منه في لفظه مما هي منه في نظمه وما أتاه الحسن من الجهتين.

فالنظم عند عبد القاهر هو نظم بلاغي نقدي لا يبتغي فيه المتكلم الناظم غير أن ينظر في وجوه كل باب من أبوابه ويتصرف في الفروق والوجوه التي من شأنها أن تكون فيه، ولا يبتغي فيه المتلقي الناقد غير أن يبين تفاوت النصوص الإبداعية من حيث الجودة والحسن في النثر وفي الشعر حتى ينتهي إلى القرآن حيث تستوي الأقدام في العجز.

خاتمة:

وعلى العموم فالناظر في الموروث البلاغي والنقدي يجزم بحقيقة التداخل والاشتراك بين البلاغة والنقد الأدبي في دراسة تاريخ النظم العربي وتطوره باعتباره وليجة للكشف عن أسرار إعجاز النص القرآني،إلا أن العلماء قبل عبد القاهر الجرجاني وإن كانوا لم يستعملوا النظم في المعاني، فإنهم قد استعملوا فيها ما هو بمعناه ونظير له كالنسج و التأليف والصياغة و البناء والتلاؤم والضم وهي مصطلحات فيها كثير من الإجمال والتداخل بين النقد والبلاغة حتى جاء عبد القاهر الجرجاني فأوضح مصطلحات العلماء الغامضة، ودقق في أمر النظم وحقق، ووضع كل علم مقامه الذي يليق به، بحيث يبتدئ النقد من حيث انتهت البلاغة دون أن يكون هناك فصل بينهما أو خلط، لكن هذا الامر لم يكتب له الاستمرار مع العلماء المتأخرين بعد عبد القاهر الجرجاني حيث تحول النقد معهم إلى بلاغة وفصلت البلاغة عن النقد فصلا أزهق روح النص الأدبي.

الهوامش والإحالات

---

[1]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون مكتبة الخانجي القاهرة، ط7، 1418هـ، 1988م ج3 ،ص: 295.

[2]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون دار الجيل، لبنان- بيروت، دط، 1416هـ - 1996م ج4، ص: 90.

[3]- أحمد جمال العمري ،المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، مكتبة الخانجي القاهرة،دط، دت، ص90 .

[4]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح:عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي، القاهرة،دط،دت ،1384 هـ-1964م،ج4،ص: 31.
[5]- البيان والتبيين، ج1 ، ص: 67.
[6]- الحيوان، الجاحظ ،ج3،ص: 131.
[7]- عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر،مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة،ط3/ 1413هـ - 1992م، ص: 81.
[8]- نفسه، ص4.
[9]- نفسه ، ص454.
[10]- دلائل الإعجاز ، ص354 ص39.
[11]- محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، عيار الشعر، الحسني العلوي، أبو الحسن (322هـ)،تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي - القاهرة، دط، دت، ص: 213.
[12]-دلائل الإعجاز ، ص: 213.
[13]- قدامه بن جعفر، نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ،دار الكتب العلمية ،بيروت،لبنان، دط ،دت،ص: 165.
[14]- أبو هلال العسكري (395ه)، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ، ط2، 1952م. ص: 161.

[15]- الرماني(386ه) والخطابي (388ه)وعبد القاهر الجرجاني (471ه) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرسالة الثانية: النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر-القاهرة،1976م ، ص:107.
[16]- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن(النكت في إعجاز القرآن) ،ص: 94-95.
[17]- نفسه ، ص: 95-96.
[18]- صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد ألأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، دار الكتاب الحديث طبعة 2003م،ص: 76-77.
[19]- ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن (الرسالة الأولى: بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي)، ص: 27 وينظر أيضا منير سلطان ، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر 1977م.ص158-159.
[20]- ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن (الرسالة الأولى: بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي)، ص: 27 .
[21]- نفسه ، ص29.
[22]- ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ، ص36.
[23]- عبد القادر بقادر ،مصطلح النظم في النقد العربي القديم ، ،قسم اللغة العربية والأدب العربي ،جامعة قاصدي مرباح ،ورقلة (الملتقى الدولي الأول في المصطلح النقدي يومي 9و10 مارس2011 ،ص: 8.

[24]- الباقلاني (403ه) إعجاز القرآن ،،تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف - مصر،ط5، 1997م، ص: 112.
[25]- إعجاز القرآن ، ص: 37.
[26]- الباقلاني، كتاب التمهيد، عني بتصحيحه ونشره ريتشارد يوسف مكارثي اليسوعي ، منشورات جامعة الحكمة ،سلسلة علم الكلام1،المكتبة الشرقية بيروت،ط1957،2م، ص: 151.
[27]- الباقلاني، نكت الانتصار لإعجاز القرآن، تحقيق محمد عصام القضاة ،دار الفتح عمان ،دار ابن حزم بيروت،ط1422،1ه2001م، ص: 66.
[28]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف، ط6، دت، ص: 108-109.
[29]- بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن ، دار العلم للملايين، دط ،1976م ،ص: 107.
[30]- إعجاز القرآن، ص: 111.
[31]- القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق الشيخ أمين الخولي ،الشركة العربية للطباعة والنشر ط1960/1م،ج16 ص: 199 .ويوازن بما في الدلائل ، ص44-46-55-56.
[32]- المغني في أبواب التوحيد والعدل ، ص: 199.
[33]- نفسه ، ص: 199-200.
[34]- دلائل الإعجاز، (مقدمة المحقق)، ص: "د".
[35]- دلائل الإعجاز ،ص: 395.
[36]- نفسه ،ص: 395.
[37] - دلائل الإعجاز ، ص: 454.
[38]-نفسه ، ص: 80.
[39]- دلائل الإعجاز ، ص: 53.
[40]- نفسه ، ص: 49.
[41]- دلائل الإعجاز ، صص36-37.
[42]- نفسه ، ص80.